

الزبيدي الداخل إلى الأندلس

د. عبد الله محمد حسين الزيّات

(كلية الآداب جامعة الفاتح. طرابلس ليبيا)

الأستاذ الدكتور رمضان عبد التّوّاب أستاذ كبير مشهود له بالإنتاج الغزير والجيد في مجال التّراث العربي خصوصا اللغوي، تحقيقا وتأليفا، وكان من بين ما قام به في مجال التّحقيق تحقيقه لكتاب "لحن العوام في الأندلس" للعالم الأندلسي الكبير أبي بكر الزبيدي الإشبيلي، ولعل هذا الكتاب كان من بواكير إنتاج أستاذنا الدكتور رمضان عبد التّوّاب .

جاء في اسم أبي بكر الزبيدي ونسبه الذي سجله له الدكتور رمضان ما يلي :
 "محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الداخل بن أبي
 ضمرة من بني مازن....."(1)

ويعلق الدكتور رمضان عبد التّوّاب على الوصف "الداخل" بأنّه نقله عن جمهرة ابن حزم، ولا يضيف شيئا حتى إذا جاء بعد أسطر قال (2) : "وتذكر المصادر أنّ أصله من حمص الشام، بمعنى أنّ أجداده كانوا يقيمون بحمص من مدن الشام غير أنّنا لا نعرف متى رحلوا إلى الأندلس ولا من هو من هؤلاء الأجداد كان أول من رحل إلى هناك، كلّ ما نعرفه عنه أنّ والده كان بالأندلس، تلقّى بها العلم وسمع كثيرا من الشيوخ وتوفي حوالي 932/320 ."

(1) أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي، لحن العوام، تحقيق وتعليق رمضان عبد التّوّاب ط 1
 1974. ص 8 .

(2) المصدر السابق ص 9.

ولا ندري ماذا يكون فهم د. المحقق لمعنى وصف الدّاخل الذي ينصّ على أنّه أخذه عن ابن حزم، إن لم يكن معناه، الذي دخل الأندلس، كما هو الشّأن في تراجم كثير من الأندلسيين ذوي الأصل المشرقي الذين اعتاد مترجموهم أن ينصّوا على من دخل الأندلس من آباء المترجم له منهم أو أجداده.

فيكون معنى العبارة هنا، بعد "بشر"، أن بشرا هذا جد الزبيدي الأعلى هو الذي دخل الأندلس، ولذلك فإنّ التّاريخ الدّقيق لأوّل من دخل الأندلس من أسرة الزبيدي قد يُجهل، ولكن يُستطاع تقدير التّاريخ التّقريبي، أو على الأقلّ تقدير القرن والعقد تقريبا، وما دامت الأجيال التي تفصل بين المترجم له وجدّه "بشر" الدّاخل إلى الأندلس هي ستّة أجيال، فإنّ الزّمان سيكون قرنين تقريبا لأن القرن مقدّر بثلاثة أجيال على رأي ابن خلدون⁽³⁾، وإذا كان والد الزبيدي قد توفي عام 320 / 932 فإن بشرا يمكن أن يكون قد وجد بالأندلس بعد 120 / 737 ويُحتمل أنّه كان من طالعة بلج بن بشر القشيري التي كان أفرادها من مناطق الشّام، ومن بينها حمص، الموطن الأصلي لأجداد المترجم له.

ومعروف جدّا إطلاق لقب الدّاخل على عبد الرحمان بن معاوية صقر قريش، وقد أفاد بعض الباحثين أنّ لقب الدّاخل أطلق على من دخل الأندلس قبل إطلاقه على عبد الرحمان بن معاوية بن هشام، فلُقّب به الفارس عبد الجبار بن نذير الذي دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري سنة 124 / 742⁽⁴⁾، وهذا يعني أنّ الدّاخل صفة كانت تطلق على كل من دخل الأندلس، ثمّ إنّ سياق الكلام الذي يورد فيه ابن حزم لفظ الدّاخل ومنهجه في الكتاب يتظافران على أنّ معنى الدّاخل هنا هو وصف لبشر

(3) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا [ضمن كتاب العبر، مؤسسة الأعلمي بيروت] 7 ص 379.

(4) انظر أحمد مختار العبادي "شخصيّة عبد الرّحمان الأوّل الأموي الملقّب بالدّاخل وصقر قريش" مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلاميّة في مدريد 29 (1997) ص ص 23-26. [يحيل العبادي على ترصيع الأخبار للعذري 15].

جد الزبيدي، قال يعدّد أبناء زبيد بن صعب بن سعد العشيرة ذاكرا نسبه: "وبإشبيلية رهط الفقيه محمد بن الحسن بن عبد الله بن مَذْحَج بن محمد بن عبد الله بن بشر الداخل بن أبي ضمرة من بني مازن بن ربيعة بن زبيد بن صعب" (5).

وأما الوصف بعبارة دخل الأندلس فمعروف جدا عند أصحاب التّراجم وطبقات الرّجال، فهذا ابن الفرضي [أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ت 403/1012] يستعمل لفظ دخل الأندلس أو الداخل إلى الأندلس في غير ما موضع من كتابه، فقد بدأ كتابه بترجمة عبد الرّحمان الداخل وذكر دخوله إلى الأندلس فقال: "دخل الإمام عبد الرّحمان بن معاوية رحمه الله الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة" (6)، ويقول مترجما لمصعب بن عمران "كان قاضيا بقرطبة للأمير هشام بن عبد الرّحمان ابن معاوية، وهو شاب دخل الأندلس في أيام عبد الرّحمان بن معاوية" (7)، وقال في ترجمة موسى بن يحيى الصديني، من أهل فاس "دخل الأندلس وتردّد في الثغر" (8)، وكذلك الحميدي [ت 488/1095] نراه يستعمل العبارة بلفظ الفعل "دخل الأندلس"

(5) ابن حزم الأندلسي، جهمرة أنساب العرب، دار الكتب العلميّة، بيروت 1983، ص 412.
وعند ابن الفرضي تاريخ العلماء 92/2 أورد محمد بن حسن بن عبد الله بن مَذْحَج الزبيدي من أهل إشبيلية واقتصر على هذا ولم يورد غيره ممّا ورد من نسب الزبيدي عند ابن حزم.
(6) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس عنى بنشره عزّت العطار الحسيني، ط2. مكتبة الخانجي بالقاهرة 1408/1988، 1/ 11.

(7) المصدر السابق 1/ 133.

(8) المصدر السابق 1/ 148.

في عديد من تراجمه (9)، وكذلك الشأن عند ابن الزبير الغرناطي في كتابه صلة الصلة (10).

وقد استعمل ابن الفرضي كما استعمل غيره الوصف باسم الفاعل فأطلق لفظ الدّاخل على من دخل الأندلس في عديد من تراجمه كما هو الحال في الترجمة التي خصّصها ليحيى بن يحيى بن كثير إذ قال بعد هذا النسب : " وكثير هو المكنى بابي عيسى وهو الدّاخل إلى الأندلس " (11).

أمّا المقرئ صاحب الموسوعتين الشهيرتين في التاريخ والأدب الأندلسيين: نفح الطيب وأزهار الرياض، فقد خصّص في الأولى بابا للدّاخلين إلى الأندلس. ولئن سماه "في ذكر بعض الوافدين على الأندلس... " فقد بدأ الباب بقوله : " اعلم أنّ الدّاخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون " (12)، وذكر قبل الترجمة الأولى في الباب قوله : "فمن الدّاخلين إلى الأندلس " (13). وهكذا غالبا ما كان يقدّم بهذا الوصف لكلّ ترجمة من تراجمه الستّ والثمانين التي اشتمل عليها هذا الباب، وقد استخدم أيضا أوصاف الدّاخلات والوافدين والواردين والقادمين (14) .

(9) انظر مثلا ترجمة أبي البركات محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله، الجذوة 63، وترجمة الخليل بن أحمد البستي أبي سعيد الفقيه، الجذوة 186.

(10) انظر مثلا ترجمة عبد المحسن بن ربيع وترجمة عبد اللطيف بن أبي الطاهر ق 4 ص 47، وترجمة عمر بن أحمد بن عبد البر بن أحمد التوزري ق 4 ص 76 .

(11) تاريخ العلماء 2 / 176 .

(12) نفح الطيب تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت 1408 / 1988، ج 3 ص 5 .

(13) المصدر السابق .

(14) المصدر السابق في مواضع متعدّدة .

وبعد فهذه نكيتة متواضعة في بعض مصادر التاريخ الأندلسي لعلها تكون مفيدة في إزاحة الضبابية التي أشيرت حول الداخل الأول إلى الأندلس من أسرة الزبيدي وزمن دخوله.